أخـى زكـى المحـاسنى

للشاعر الاديب الدكتور

صفاء خلوصى

الاستاذ فى كلية الآداب بغداد والمحاضر

المحقق فى جامعات لندن وخزئن المخطوطات

ايه يا أخى زكى...

ما تزال رسالتى الاخيرة اليك بدون رد، وقد عجبت من طول الانتظار، أنت الذى عودتنى أن تبعث بردودك الى سراعا... وعلى عجل!...

ما أكثر رسائلك الى وأنت مريض، ومع ذلك فما كنت تتشكى ولا تبعث بأنة ولا آهة، حتى خيل الى أن ما ينسب اليك من مرض وعكة عابرة بولغ فيها، الى أن جاءنى النعى، فرجعت من توى الى رسائلك وأشعارك وكتبك أنشرها بين يدى، وبعضها لا يزال طرى المداد، ومما زاد فى طراوة مدادها هذه الدموع الحرى التى ذرفتها من

أجل صديق عزيز راحل، وان كان الدمع لا يليق بالرجال، ولكن من أجل من جمع المحاسن يا «محاسنى» عندى ألف عذر وعذر!

أتذكر يوم بعثت بأساطيرك[1] الى وأنا نزيل مدينة ليدز؟

لقد قرأتها معجبا مباركاً لك عبقريتك، ولم أتمالك نفسى من نظم قصيدة فى اطرائها والثناء عليها وعليك... وقد قلت يومها:

عقل العى مقولى
مقولى اليوم خائنى!

وما يصدق على بالامس يصدق على اليوم مضاعفاً، فانا عيى مشدوه، لاأحير بيانا ولا أستطيع كلاما، وان ما اقوله هذيان محموم وهذرمة من أضاع الرشد، فوقع الصاعقة على أهون من نبأ نعيك وخبر مفارقتك دنيانا. وان كانت دنيا لا يأسف على فراقها انسان.

لقد وعدتنى بكتابة مقدمة للجزء الجديد من «الفسر» أنت يا من لم تخلف وعدا ولم تنكث عهدا، أنت يا من شاطرتنى الاعجاب بالمتنبى وروايته، فاين منى وعدك ومرتقب عهدك؟

لا، يا أخى زكى، لا، ماهكذا يكون الرحيل ولا الوداع... فقد تركت رسالة بلا رد، وكتابا بلا مقدمة، وقلبا بلا نجوى، فالى أين الرحيل على عجل يا أبا ذكوان؟

أتصدق أن ساعى البريد ناولنى الرسالة التى تحمل نبأ نعيك وأنا

(١) للمحاسنى كتاب «أساطير ملهمة».

أحقق الأبيات التالية لصديقك وصفيك المتنبى:

نبكى على الدنيا وما من معشر
جمعتهم الدنيا، فلم يتفرقوا
أين الاكاسرة الجبابرة الأُلى
كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه
حتى ثوى، فحواه لحد ضيق
خرس اذا نودوا، كأن لم يعلموا
أن الكلام لهم جلال مطلق
فالموت آت، والنفوس نفائس
والمستغر بما لديه الأحمق

حتى اذا ما فرغت من البيت الاخير واثبته بروايتيه المتباينتين بين من يقول: «المستغر» فضضت الكتاب، وياشؤم ما قرأت... فأيقنت أن المتنبى سبق صاحب الكتاب فى ابلاغ نعيك الى... بأبلغ لفظ وأروع عبارة:

نبكى على الدنيا وما من معشر
جمعتهم الدنيا، فلم يتفرقوا

أجل لقد كان المتنبى بين نعاتك ورثاتك فقد جمعتنا الدنيا بالمحاسنى وأقرانه ولداته الطيبين، وها نحن أولاء بدأنا نتفرق واحدا تلو واحد، فيا تعس الحياة التى لا تبقى على صفى أو صديق.

لقد كان إسما على مسمى، وقلما تصف الأسماء مسمياتها

بمثل هذه الدقة والبراعة. كان جملة محاسن، ومجموعة رجال فى رجل واحد، لذلك لا أصدق انه مات، فقد يموت فيه شخص أو شخصان وتبقى جملة شخوص. ربما مات زكى المحاسنى الهيكل الفانى، ولكنى لا أصدق أن الشخوص الاخرى الكامنة فيه قضت نحبها جميعا.

قولوا أيها النعاة شيئا آخر غير هذا، فانى لا أصدق موت زكى المحاسنى الباحث والاديب والكاتب والشاعر.. فان هؤلاء أحياء لا يموتون. واسمحوا لى أن أكذب النعى فان رسائله لا تزال طرية المداد أمامى وها هى ذى بخطه وقلمه، بعواطفه المخلصة الصادقة أبدا.

لقد اجتمعت لدى من رسائله طائفة أعتز بها. لقد كتب الى ابان مرضه. كل ذلك لكيلا أشعر بوحشة الاغتراب، وليس ذلك فحسب بل كان يشفع رسائله بمؤلفاته بكتبه وقصائده ألا ما أشد ظلام الدنيا بدون المحاسنى، بل ما أعظم الكارثة على دنيا الادب والاديب!.

دعونى أنبذ فكرة التصديق بموته، لاننى لا أستطيع أن أتصور مجلة «الأديب» خلوا من اسمه الحلو ذى الجرس الرائع والحروف المتلألئة.

كان زكيا، وكان جملة محاسن... أقولها حقا وصدقا، ويقولها معى أصدقاؤه، وهم كثر فى كل بلد من أرجاء الدنيا العربية.

أعتقد أنه مات بهيكله الفانى كما مات جهابذة العلماء من

قبل: مات والقلم فى أنامله، والأفكار الحلوة تداعب ذهنه الوقاد، والكلمات الذهبية تنساب حلوة الجرس على لسانه الذرب.

كان أكثر من شاعر، وكان أكثر من اديب. كان عالما وفقيها فى اللغة، وأذكر اننى بعثت اليه ببيت مغلق من شواهد ابن جنى يوم كنت فى مدينة ليدز، بعيدا عن المصادر والمظان، فبعث الى بتعليق يدل على المعية وذكاء وسعة اطلاع، ويسرنى أن أقول أن هذا التعليق وتعليقات أخرى اعتز بها ستظهر فى الجزء المقبل من «الفسر».

ولا تزال كلماته فى احدى رسائله ترن فى أذنى:

«سأكتب لك دوما لتشعر بالألفة وتنفى عنك شعور الاغتراب، وفى رسالتى الثانية أخبار من قلبى وحبى، وشعرى فى ذلك من بعد الخمسين، وكان صاحبكم الزهاوى يقول: (وأقوى غرام المرء فى حين يهرم!)».

وفى موضوع آخر يقول:

«طربت جدا وهزتنى أبياتك الجميلة المكينة التى تنم على أنك شاعر بالطبع، وحبذا متابعتك فى الشعر بنشر خطرات طيبات يواتيك بها الإلهام الصافى.

وقد وقفت معجبا عند قولك «أن ابن جنى ربما كان مخترعا لاحدى العبارات أو الالفاظ أو الاخبار حديثاً رواه أبو عثمان

الجاحظ عن رجل يسمى المكى كان مخترعا للاخبار بشكل بارع عجيب.

ومن خير ما وضعه رحمه الله ثلاثة كتب: علم اللسان العربى، والفقه اللغوى المقارن، وتاريخ المعاجم والموسوعات العربية، ولمحات من الموسوعات الغربية، وهى محاضرات ألقاها فى كلية الآداب وكلية التربية بالجامعة اللبنانية، قبل أن يقعده المرض عن متابعة التدريس قبل وفاته بعام ونيف.

ولقد كتب فى بعض رسائله متحدثا عن أبى الفتح وكان، طيب الله بالرحمة ثراه، شديد الاعجاب به:

«انه من أكبر التشريف لى أن أكتب مقدمة له تليق «بالانس والجن» غير أنه مضى للقاء ربه (وعجلت اليك ربى لترضى)، قبل أن تتحقق هذه الأمنية على أنه مع ذلك كتب تقريظا للجزء الاول لبعض دور الاذاعة أرجو أن اوفق فى الحدول عليه، فأوشح به بعض أجزاء الكتاب المقبلة.

ولا مرية فى أن المحاسنى كان دائرة معارف وموسوعة لغوية أدبية علمية دون بعضها وضاع الكثير مع الأسف اذ مات فى أوج نضجه ولما يوفق الى تدوين كل ما كان يملأ ذهنه الواسع الجبار.

ولقد تألمت كثيرا عندما كتب الى فى أخريات أيامه مشيراً الى احدى رسائلى: «قرأتها بالمنظار اليدوى، اذ أن نظرى ضعف لتناول الكورتيزون ضد الروماتزم».

ووقفت لحظة اذ تذكرت المأسوف عليه الدكتور مصطفى جواد وكيف أن الكورتيزون الذى تناوله لمعالجة الروماتزم دمر قلبه، فكتبت اليه أن يقلل من تناوله إن استطاع الى ذلك سبيلا.

ولكن سبق السيف العذل، فقد مضى زين المجالس والمحافل وقاعات التدريس، سيد القرطاس والمنصة، ووالله لو شاء ـ كما قال أبو العتاهية ـ أن يجعل كلامه كله شعرا لفعل، فقد كان القريض يواتيه عن طبع سليم وسليقة أصيلة.

سأتخيل صورته فى كل صفحة من صفحات «الأديب»، وأتوهم رسائله فى ثنايا الرسائل التى تردنى كل يوم، بل أسمع صوته مجلجلا من بعيد من قاعات الجامعة اللبنانية، وجامعة دمشق والسعودية!...

انه أكثر من أديب، وأكثر من شاعر، وأكثر من استاذ...

إنه رمز... أجل! لقد كان زكى المحاسنى رمزا مباركا من رموز الحرف العربى الأصيل.

***